د. أولجبك كازانوف

أستاذ مشارك بجامعة الاقتصاد العالمي والدبلوماسية، قسم العلاقات الدولية، أوزباكستان

عابرة للحدود:

أربع قضايا أمنية تهدد الاستقرار في آسيا الوسطى

تتمتع آسيا الوسطى بأهمية جيوسياسية كبيرة، فقد زادت أهميتها مؤخراً، ارتباطاً بعدد من العوامل منها التطورات الأمنية التي تشهدها أفغانستان، واستعادة حركة طالبان لقدر كبير من نفوذها، وانعكاس ذلك على أمن دول آسيا الوسطى، بالإضافة إلى أهمية مواردها الطبيعية، خاصة من النفط والغاز، فضلاً عن صراع النفوذ بين القوى الكبرى، خاصة روسيا والولايات المتحدة والصين.

وتعاني المنطقة من تصاعد التهديدات الأمنية بها، سواء تلك المرتبطة بالتهديدات الإرهابية، أو تلك المرتبطة بتنافس القوى الكبرى، أو تعلقت بالصراعات الإثنية أو مشكلة اللاجئين.

أولاً: تصاعد التهديدات الإرهابية

تمثل الأعمال الإرهابية التي تستهدف النظم القائمة، أحد التهديدات الماسة بأمن دول آسيا الوسطى، وقد زادت تهديدات الجماعات الإرهابية ارتباطاً بزيادة نفوذ وتأثير طالبان في أفغانستان في مرحلة ما بعد عام 2014، وزيادة نفوذ الجماعات المرتبطة بها في آسيا الوسطى، خاصة الحركة الإسلامية الأوزبكية، وجماعة الجهاد الإسلامي، كما يزداد نشاط حزب التحرير في أوزباكستان وقيرغيزستان، والذي ينادي بتطبيق الشريعة، وقد شهدت معظم دول آسيا الوسطى عمليات إرهابية، وذلك على النحو التالي:

1- كازاخستان: شهدت عدة عمليات انتحارية في عام 2011، وتعرضت الشرطة لهجمات إرهابية في يوليو وأغسطس 2012، كما أعلنت الحكومة الأوزبكية نجاحها في إحباط 35 عملية إرهابية، وتحييد 42 جماعة متطرفة في عام 2011 و2012، كما أعلنت وزارة الداخلية الأوزبكية وقف أنشطة 3 جماعات إرهابية، واعتقال 24 من أعضائها في عام 2013، كما شهد عام 2014 محاكمة 4 أفراد بتهمة السفر إلى سوريا للحصول على تدريب من قبل الجماعات الإرهابية هناك والمشاركة في العمليات القتالية ضد الحكومة السورية.

2- قيرغيزستان: وقد عانت من الجماعات الإرهابية المتمركزة في طاجيكستان وأفغانستان، ففي الفترة من يوليو وحتى أغسطس 1999، قامت الحركة الإسلامية الأوزبكية بأخذ عدة رهائن والاستيلاء على عدة قرى في جنوب قيرغيزستان وإعلان إقامة دولة إسلامية، غير أن القوات القيرغيزية، بدعم جوي من أوزباكستان، تمكنت من طرد الجماعة في 2000، وقد قامت الجماعة بتكرار المحاولة نفسها في عام 2006، غير أنها لاقت هزيمة كبيرة، وفي عام 2010، قامت جماعة جيش المهدي بتفجير منشأة رياضية، فضلاً عن محاولتها تفجير قسم شرطة، كما نجحت في قتل ثلاثة من قوات الشرطة في أوائل 2011، كما تتهم الجماعة بالتخطيط لمهاجمة السفارة الأمريكية، وتتبع هذه الجماعة حركة طالبان.

3- طاجيكستان: في أواخر أغسطس 2010، تمكن العشرات من المحكوم عليهم بعقوبات نتيجة إدانتهم بارتكاب أعمال إرهابية من الهرب من سجن في دوشنبه، وقاموا بشن عدة عمليات إرهابية في أنحاء متفرقة من طاجيكستان، كما

أنه في أوائل سبتمبر 2010، قامت سيارة مفخخة بقتل وجرح العشرات من الشرطة في مدينة خجند، وأعلنت جماعة أنصار الله مسؤوليتها عن التفجير، وهي جماعة غير معروفة، يعتقد بأنها الفرع الطاجيكي من الحركة الإسلامية الأوزبكية.

وتجدر الإشارة إلى أن طاجيكستان تطل مباشرةً على ممر "واخان"، وهي مساحة ممتدة من الأرض القاحلة على شكل إصبع تقع بين طاجيكستان وباكستان والصين، وتتمتع بأهمية جيواستراتيجية، وقد استغلتها الجماعات الدينية المسلحة مثل حركات المجاهدين، وجند الله، وطالبان باكستان، وعسكر طيبة، وجماعة التبليغ، والذئاب الرمادية، وحركة شرق تركستان الإسلامية، وغيرها من الحركات التي تكمن في وزيرستان الشمالية. والملحوظ أن الحدود الطاجيكية على شريط هذا الممر منطقة مفتوحة وسهلة الاختراق، مما قد يرشحها قريباً لأن تصبح مصدراً للقلق والإزعاج لكل دول آسيا الوسطى تقريباً[1].

4- أوزبكستان: شهدت في الفترة من 28 مارس وحتى أبريل 2014 عدة تفجيرات إرهابية، راح ضحيتها 47 شخص، وقد أعلنت جماعة الجهاد الإسلامي الأوزبكي، وهي جماعة منشقة عن الحركة الإسلامية الأوزبكية، عن مسؤوليتها عن التفجيرات الإرهابية، وقد تم إلقاء القبض على عدد من المتهمين، وقد اتهموا بمحاولة قلب نظام الحكم، وقد اعترف بعضهم بأنه تلقى تدريبات على يد عرب في معسكرات في كازاخستان وباكستان، كما استهدفت السفارتان الأمريكية والإسرائيلية في طشقند بتفجيرات إرهابية في 30 يوليو 2004، وقد أعلنت كل من جماعة الجهاد الإسلامي والحركة الإسلامية الأوزبكية مسؤوليتهما عن التفجيرات[2].

وتكشف هذه التطورات في دول آسيا الوسطى عن تصاعد التهديدات الإرهابية في هذه الدول، وارتباط الجماعات الإرهابية في معظم دولها ببعضهم البعض، فاللافت أن هناك ما يشبه "الاتحاد الدولي للإرهاب" الذي يبدو كمجتمع متشابك تجمعه أيدولوجية مشتركة وتعاون متبادل، فتنظيم "داعش" متصل جيداً بحلفائه في ليبيا، والساحل واليمن وحتى في أفغانستان، ناشراً أيدولوجياته المتطرفة في المناطق الشمالية على حدود طاجيكستان وأوزبكستان وتركمانستان. ولقد دعمت تشكيلات عسكرية مختلفة "داعش"– بعضها من آسيا الوسطى وباكستان – أثناء اشتباكاته العسكرية مع الجيش العراقي في شهريّ أغسطس وسبتمبر عام 2014.

وعلى الرغم مما يشاع عن وجود خلافات واختلافات بين "داعش" والتنظيمات الإرهابية الأخرى، فواقعياً لم يظهر أي تضرر في علاقاتها مع عدد من التنظيمات الإرهابية الناشطة في آسيا الوسطى ومنها خلايا جند الله الطاجيكية وحزب تركستان الإسلامي التابع للانفصاليين الإيغور، وعسكر طيبة، وجماعة التبليغ الناشطة في بدخشان. وقد تستغل مثل هذه العلاقات في أعمال إرهابية ضد الولايات المتحدة وحلفائها في أوروبا والشرق الأوسط.

ثانياً: الصراع بين القوى الكبرى

زادت محورية دول آسيا الوسطى الجيوسياسية منذ أوائل القرن العشرين، نتيجة لموقعها الجغرافي، وفي هذا السياق، وجدت تلك الدول نفسها في خضم منافسات بين القوى الدولية والإقليمية الساعية لإيجاد موطئ قدم لها في آسيا الوسطى، فضلاً عن السعي لامتلاك النفوذ الاقتصادي والعسكري في هذه الدول.

وتسعى روسيا لإجبار كل من طاجيكستان وقيرغيزستان على الالتزام بالتوجهات الروسية، كما تعكس مساعي روسيا لضم الدولتين إلى الاتحاد الأوراسي الرغبة الروسية في إخضاع اقتصاداتهما لنفوذ موسكو.

ويتضح التنافس الجيوسياسي في المنطقة في سعي كل من روسيا والصين بصورة مستمرة لطرد الولايات المتحدة من قواعدها في مناس في قيرغيزستان، وكارشي خان أباد في أوزبكستان، وهو ما نجحت فيه، كما تحارب روسيا أي وجود اقتصادي أجنبي في دول آسيا الوسطى، ومن ذلك استياء روسيا من الاستثمارات الإيرانية في طاجيكستان، وتأثيرها السلبي على الاستثمارات الروسية هناك.

> زادت محورية دول آسيا الوسطى الجيوسياسية منذ أوائل القرن العشرين، نتيجة لموقعها الجغرافي، وفي هذا السياق، وجدت تلك الدول نفسها في خضم منافسات بين القوى الدولية والإقليمية الساعية لإيجاد موطئ قدم لها في آسيا الوسطى، فضلاً عن السعي لامتلاك النفوذ الاقتصادي والعسكري في هذه الدول.

وفي المقابل، تسعى الصين لتقوية علاقاتها الاقتصادية بكل دول آسيا الوسطى، وزيادة اعتماد هذه الدول على السوق الصيني، وقد تغاضت روسيا عن الاستثمارات الصينية هناك، بسبب ضعف الاستثمارات الروسية، فضلاً عن كون الاستثمارات الصينية توفر بديلاً عن الاستثمارات الأمريكية والأوروبية بالمنطقة، وهو ما ترحب به روسيا[3].

ثالثاً: الحدود المصطنعة والصراعات الإقليمية

بعد الانتهاء من إقامة الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية في آسيا الوسطى بحلول عام 1936، بات جلياً أن التقسيمات الحدودية قد تم رسمها بصورة تعسفية، من دون أخذ الشعوب والإثنيات القاطنة فيها بعين الاعتبار، حيث عملت تلك الحدود على تقسيم العديد من الجماعات العرقية بشكل تعسفي.

فمن الملحوظ أن 56.2% من الطاجيك يعيشون بشكل أساسي في أوزبكستان، في منطقتي سورخانداريا وكشكادريا المتاخمتان لطاجيكستان وأفغانستان[4]، من جانب آخر يعيش جزء كبير من الأوزبك في جنوب وجنوب غرب كازاخستان. وطبقاً لتعداد 1989، فإن الأوزبك يشكلون 2.5% من سكان كازخستان. وفي الوقت ذاته يعيش جزء كبير من الكازاخ– المقيمين في أوزبكستان– في المناطق

المطلة على كازاخستان. ويعيش غالبية القرغيز المقيمين في أوزبكستان في وادي فرجانة، ويقطن بها 7.6% من إجمالي تعداد القرغيز في المنطقة. ويقطن أغلب التركمان في مناطق كاراكالباكستان وسورخانداريا وبخاري وخوارزم في أوزبكستان[5]، ومن ثم فإن هذا الاختلاط الشديد في الأعراق أحد أبرز التحديات والمخاطر الموجودة في المنطقة.

ففي قيرغيزستان – على سبيل المثال – سُميت الدولة على اسم الجماعة العرقية الموجودة بها، والتي مازالت أقلية في أغلب المناطق الخصبة بالإقليم. وقد وقعت مصادمات

إثنية بين القرغيز والأوزبك في جنوب قيرغيزستان في يونيو 2010، وقد اندلعت بسبب غضب القرغيز من هيمنة الأوزبك على التجارة، في حين أن الأوزبك يعانون من التهميش سياسياً، وقد راح ضحية هذه الأحداث 426 شخصاً، وفقاً للتقديرات الرسمية.

وعلى الرغم من انتهاء الحروب الأهلية في طاجيكستان، والتي امتدت من عام 1992 وحتى 1997، باتفاق سلام، إلا أن التوترات الإثنية استمرت في السنوات التالية، وألقت بظلال سلبية على الاستقرار هناك.

ومن جانب آخر تزامنت هذه القلاقل مع وجود تمركز لحركات إسلامية متطرفة تدرب مقاتلين ومرتزقة من السكان المحليين، وقد زاد من خطرها الحدود السائبة غير المحكومة في أجزاء كثيرة إلى زيادة تعقد الوضع الاجتماعي والسياسي في عدد من مناطق آسيا الوسطى.

رابعاً: مشكلة اللاجئين

تمثل مشكلة النازحين واللاجئين تهديداً للاستقرار الاجتماعي، ووفقاً للخبرات الدولية، فإن هذه المشكلة تمثل تهديداً في اتجاهين بالأساس، أولهما: التوترات الاجتماعية في البلدان المضيفة، بحيث قد تصبح تلك التوترات بدورها مسبباً خطيراً لزعزعة الاستقرار، فالصعوبات الاقتصادية قد تتحول بسهولة لأزمة سياسية داخلية، ومن جانب آخر فإن نشوب توترات بين اللاجئين والسكان المحليين يصاحبه شعور بالسخط حيال قرار الدولة باستضافة اللاجئين، وأحياناً تظهر مطالبات داخلية بوقف تدفق اللاجئين. وبدورها تقوم قوى سياسية عديدة باستغلال هذا السخط لصالحها، مما يؤثر سلباً على الوضع الداخلي في دول آسيا الوسطى بشكل عام[6].

أما الاتجاه الثاني للتهديد الذي تمثله مشكلة اللاجئين على الأمن القومي، فيرتبط باستغلال الأطراف المتناحرة لهذا الموقف. فتدفق اللاجئين يوفر الفرصة إلى تصعيد الصراعات من خلال اختراق الجماعات المسلحة لها، واستخدام مخيمات اللاجئين الجديدة في إقامة معسكرات تدريب شبه عسكرية للمسلحين، ولتخزين السلاح. ولعل واحداً من أخطر جوانب هذه الظاهرة هو أن هؤلاء الفاعلين هدفهم استمرار الصراع لاستغلاله "كغطاء" لأنشطتها المتطرفة.

ومن ثم أصبحت التهديدات التي تمثلها الجماعات الإرهابية العابرة للحدود "منصة" إطلاق للعديد من المشكلات والتوترات الاجتماعية وخلق حالة من عدم الاستقرار في جميع أنحاء المناطق المحيطة بها.

ويبدو أن هذه المشكلة شديدة الصلة بما يحدث في الغالبية العظمى من أراضي الاتحاد السوفييتي السابق، بما فيها روسيا نفسها التي لا تواجه فقط تهديدات أمنية في الشيشان، بل تواجه أيضاً انقسامات داخلية متصاعدة في داغستان وشركيسيا وكاباردينو-بالكاريا، فضلاً عن الصراع بين أوسيتيا وإنجوشيا، وقضية الليزغينيين العرقية على حدود أذربيجان وغيرها.

خاتمة

لقد أفرزت مرحلة ما بعد الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفييتي العديد من التناقضات والتي تعتبر مصدراً لتهديد الأمن القومي لهذه الدول، وفي حال لم يتم تحييد هذه التهديدات في الوقت وبالطريقة المناسبة، فإنها قد تقود إلى تفجر صراعات مسلحة وأعمال عنف شديدة. ومن المتوقع أن تظل بعض أجزاء منطقة آسيا الوسطى عرضة للصراعات وحالة عدم الاستقرار داخلياً، إلى أن يأتي الوقت الذي تتوصل فيه إلى أنماط تعايش مقبولة من كافة الأطراف، تحترم الروابط التاريخية والاقتصادية والثقافية والنفسية لكل مكوناتها.

وفي هذا الصدد، فإن السعي إلى تأسيس "نظام للأمن المشترك" أمر بالغ الأهمية، حيث يعتبر من الآليات التي يمكن الاعتماد عليها لضمان الاستقرار على المستوى الإقليمي، والذي يعتمد بدوره على التعاون الإقليمي أو حتى التكامل بين دول آسيا الوسطى بدلاً من استمرار حالة عدم اليقين وانعدام الثقة المتبادل.

1- Subhash Kapila, Afghanistan in United States China Containment Strategy, June 04, 2012. http://www.southasiaanalysis.org/paper5053

2- Jim Nichol, Central Asia: Regional Developments and Implications for U.S. Interests, **Congressional Research Service**, no. RL33458, March 21, 2014, pp. 21 – 30.

3- Stephen Blank, Rethinking Central Asia And Its Security Issues, **UNISCI Discussion Papers**, Nº 28, January 2012, pp. 13 – 15.

4- Regional Security and Cooperation in Central Asia and the Caucasus, **Collection of Articles of MGIMO**, 1999, p. 253.

5- **Ibid,** p. 253

6- **Ibid,** p. 253